الزّهـــــد في شعـر أسـامـــة بن منـقـذ

طالبة الدكتوراه: أشواق تريعة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

ملخـــص:

أولى الشاعر أسامة بن منقذ أهمية بالغة لشعر الزهد، هذه الأهمية التي تُوحِي بسيرته الحسنة وتمسُكهِ بالدّين الإسلامي الحنيف، هذا الدين الذي تجلّى في زهدياته التي قمنا بدراستها وتحليلها، والتي توشحت بمعاني الإيمان والتّقوى والدعوة إلى ترك الدنيا (الزهد) والتطلع إلى الآخرة والتذكير بالموت والبعث والحساب والأمر بالخير والنّهي عن المنكر.

ولا يخفى أنّ أسلوب **الزهد** لدى الشاعر **أسامة بن منقذ** تميّز بالحكمة والموعظة الحسنة والنُّصح والإرشاد.

الكلمات المفتاحية: الزهد، الشاعر،أسامة بن منقذ، الدين الإسلامي، النصح والإرشاد.

Abstract:

The poet oussama ben mounketh had given a great interest to the "**asceticism**", that interest was just a reflection to his modest and good behavior and his adherence to his Islamic religion.Thus, we can fell and touch his **ascetism** to his religion which we have studied and analyzed, His **ascetism** had characterized by his faith, piety, righteousness, leaving life, looking for her after, reminding us about the death, resurrection ,sidgement, the asking for the promotion of virtue and prevention of vice.

The **asceticism** style of oussama ben mounketh was characterized also by wisdom, sermon, advice, and guidance.

تمـهيـد:

لمّا كان شعر الزُّهد يتوجّه إلى اللهِ سبحانه وتعالى خوفًا من عقابه وطمعًا في رحمتِهِ، وحول الدنيا ومتاعها، والآخرة وما يرتبطُ بها من موتٍ وفناءٍ وبعثٍ وحسابٍ،وما دام الشّاعر كائنًا اجتماعيًا فهو بالضرورة يعيش الحياة بكل تناقُضاتها ويتوجع بآلامها ويفْجع بمصائبها.

والشّاعر " **أسامة بن منقذ** "أيضا تعرّضَ في حياته لنكبات متوالية عاشها في غربته تركت أثرًا واضحًا في نفسيتهِ وقلبت له موازين حياته، لذلك فقد زهد الشاعر في هذه الدنيا وظهر ذلك في قصائده الزّهدية وما حملته من أفكار ونظرات في القضايا الإنسانية وفي الحياة والموت والدنيا وغيرها من القيم الرّوحية والمشكلات الاجتماعية التي لا يخلو منها أي ديوان شعري.

لذلك كان حريٌ بنا النظر في هذه الظاهرة ورصدها، لكن قبل هذا وذاك نأتي أولاً للتعرف على الشاعر أسامة بن منقذ باعتباره الأب الرُّوحي لغرض الزهد والذي خصص له بابًا في ديوانه.

أولاً: الشاعر في سطـــور:

1- اسمه ونسبه:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي[1]،الملقـب بأبي المظفـر أو مؤيد الدولة أو أبو سلامة[2].

2- مولده ونشأته الأدبيـة:

ولد أسامة يوم الأحد السّابع و العشرين من جمادى الآخرةسنة**488هـ**/يوليو سنة **1095م** وقد أكد **العماد الأصفهاني** هذا الخبر؛ إذ سمعه من أسامة في دمشق سنة إحـدى وتسعين و خمسمائة **591هـ**، وذلك لمّا سُئِل عن تاريخ ولادته فقال:**"**وُلدتُ سنة ثمـاني وثمانيـن وأربعمائة**"** أي **488هـ**[3].

نشأ أسامة بن منقذ في بيت إمارةٍ يتسِـمُ بالفروسيـة والشّجـاعة وتحمـل المصـاعـب و المشاق، فتلـقى تعليمه على أيدي فقهاء وأدباء ومـؤرخين فَـدرس الفقه والحـــديـث والأدب وحفظِ كثيرا من الشعـر القـديم و قصـص الأدب والتاريخ[4]،كما تسنّى له أن يطّلـع على تـراث العرب من شعرٍ ونثرٍ فحفظ الكثير من أشعارهم وأخبارهم حتى أصبح لديّه مخزون وافر من الثّقافة العربية، فقد حفلت كتبـه بأشتـات منهـا كمـا ضمّنـت الكثير من مختارات الشعر ومفردات البلاغة وجوامع الكلم[5].

هكذا نشأ مؤيد الدولة أبو المظفـر أسامة في كنف أسرة مثقفة، فدرس اللغـة والنحـو والأدب دراسة مستفيضة، واطلع على التاريخ والسـيّر وعلّمـهُ أبوه النجُـوم ومواقعهـا وتمرّس بأساليب القتال والصّيد[6].

3- وفـــــاتـــــه:

توفي الشاعر أسامة في الثالث و العشرين من رمضان **سنة584هـ -1188م**، بناءً على ما ذكره **ابن خلكان** في **وفياته**"دُفِنَ أسامة في الغَد شـرقي قـاسيون ودخلت تربته جانب نهر يزيد الشمالي، و قرأتُ عندهُ شيئًا من القرآن، وترحمتُ عليه"[7].

ثانيـــا: الـــــزهـــــــد

1- الزهد في اللغة والاصطلاح:

أ - الـزهـــد لغـــة:

جاء في **المعجم الصوفي:**" أنّ أصل حروف كلمة **زهد** الزّاء والهاء والدّال تدلُ على قلّة الشيء "[8].

وورد في **الصحاح**:" الزهدُ خلاف الرغبة في الشيء ويقال فلان يتزهد بمعنى يتعبد"[9].

من خلال ما سبق يتضح أنّ" **الزهد** "في معناه اللّغوي يعني قلة الشيء أو الإعراض عن الدنيا وتركها لاحتقارها أو خوفًا من الله أو هو التعبد والطّاعة.

ب -الزّهـد اصطلاحًا:

"هو الكف عن المعصية وما زاد عن الحاجة، وترك ما يشغل عن الله وبُغض الدنيا والإعراض عنها، أو هو ترك راحة الدنيا طلبًا لراحة الآخرة"[10].

وقد عرّفه **ابن الأنباري:**"هو الانصراف عن الشّيء احتقارًا له وتصغيرًا لشأنه للاستغناء عنه بخيرٍ منه"[11].

وعرّفه **أبو سعيد بن الأعرابي:**" وهذا على قيل في الزهدِ لأن يكون همُهُ همًا واحدًا لله عزّ وجل وحده ليس ذكر دنيا ولا آخرة وهو غاية الزّهد"[12].

لقد أجمعت هذه التعاريف على أن **الزهد** هو الإعراض عن الدنيا وتركها وعدم الرُكون إليها طمعًا في الآخرة ورغبةً في ثواب الله وثِقةً بما عندهُ.

2- موضوعـات الزهـد في شعـــر أســـامـة بن منقـذ:

كانت حياة أسامة بن منقذ إثر نفيه من ربوع وطنه " **شيزر**" شاقة وأليمة، فقد عانى الكثير ليُثبِتَ وجُوده بعيدًا عن وطنه وأهله،ومما لا شك فيه أنّ هذه الظُروف الصّعبة التي عاشها الشاعر، والنّكبات المتوالية التي جابهها أفقدتهُ طعم الحياة وقلبتها رأسًا على عقب، بحيث صارت الحياة بالنّسبة له لا معنى لها مادام أهله وأحبيتهُ ليسُوا فيها فبقي وحيدًا يتجرّعُ مرارات الوحدة، وعلى الرّغم من أنه نال ما ناله من عزٍ ومجدٍ ورفعةٍ في مصر وغيرها إلاّ أنّهُ زهد الدنيا وتركها بما فيها،وهذا ما لمسناهُ بعد اسْتِقرائِنَا لزهدياته، فتجلّت لنا مضامين وموضوعات زهدية بارزة فيشعره سنعرض لها بالشّرح والتحليل فيما سيأتي ذكـره:

1- **التحذير من الدنيا والدعوة إلى تركها:**

وبما أنّ **العمر** مهما طَال قصيرٌ ،يُحذّر الشاعر أسامة من **الاغترار بالدنيا** موظفًا أسلوب النّهي والتحذير وذلك في قوله (**احذر**، **ولا تغتر**) فيقول[13]:

احْذَرْ مِنْ الدّنْيَا ولاَ تَغْتَرّ بالعُمْرِ القَصِيرِ
وانْظُرْ إلى آثارِ منْ صَرَعَتْهُ مِتّا بالغُرُورِ

ويقولُ **زاهدًا** الدنيا و ملذاتها موجهًا وناهيًا من **يتأسف** على ما كان مرجوًا منها وفات دون أن يتحقق، كما يُوصي بالصّبر على المكاره؛ لأنّه لا منجا منها ويختم بحكمة ونصيحة مفادها أنّ الدنيا وما فيها كظلٍ زائلٍ والعيش فيها كحلم النّائم[14]:

لا تَأسَفَنَّ لذاهِبٍ أو فَائِتٍ يُرْجى ولا تَتبَعْهُ زفْرةُ نَادِمٍ
وأصْبُرْ عَلى الحَدثَانِ صَبرَ مَسْلِمٍ متيقِنٍ أنّ ليس مِثْهُ بسَالِمِ
فَغُضَارة الدُّنْيَا كَظِلّ زائِلٍ والعَيْشِ فِيهَا مِثلُ حُلم النّائِمِ

ثم يُعطِي مثالاً آخرًا ليُؤكد حقيقة هذه **الدنيا** التي آخرها **الرّحيل** وأنّ كلّ من عمّر وشاد وسكن القصُور ففي النهاية **رحل** كغيره من البشر وسكن **القبور** هذا حالها **فالموتُ** لا يختار ولا يميّز بل هو حقُ الجميع[15]:

عَمّروا وشَادُوا مَا تَرا هُ: مِنْ المَنَازِلِ والقُصُورِ
وتحوّلُوا مِنْ بعْدِ سُكْنَاهَا إلى سَكَنِ القُبُورِ

2- **ذمّ الدنياوملذاتِها:**

يبدو أن الشاعر أنهكته **الدنيا** بما حملته له من **همومٍ وأحزان** فقد **عجز** و**تعب** منها فصار لا يهتم بها؛ لأنّه لم ينل منها ما يوّد بل على العكس **شقا** فيها كثيرًا، لذلك توجه للمولى عزّ وجلّ بالتّضرع والتذلل والدُعاء علّهُ يُساعده ويُقدّرُهُ على تركها فهو من يهدي سبيل الرّشاد[16]:

عَجِزْتُ عن الدُّنيا فما لي مَنْ يدٍ بها ولِيَ الأيدُ المسَاعِدُ واليَدُ
ولكنّني لَمْ أُسْلُ عَنْهَا فأرعَوي ولا نِلْتُ منها ما أوَدُّ وأقْصِدُ
شقيتُ بما أحْرَزتُهُ مِنْ فضَائِلٍ بأيْسرِهَا يحْظَى الشّقِيُّ ويَسْعَدُ
وفي النّفْس إنْ ناجَيتُهَا باطّراحِهَا وبالزّهْدِ فيهَا فَتْرَةٌ وتَرَدَدُ
فيا ربُّ ألْهِمْهَا الرّشَاد بتركِهَا فإنّكَ تهدي مَنْ تشاءُ وتُرشِدُ

ويستغربُ الشّاعرُ من تعلق بعض البشر بالدنيا رغم **تقلُباتها** وفتكِها بمن كان يظُنُ الخلود فيها،فكم **نسفتْ** جبلاً وكم حولت من غني إلى فقيرٍ معدمٍ وكم صيّرت أبا أولادٍ إلى وحيدٍ مفردٍ فهي

تتلون وتتأرجح كـكفتي الميزان لذلك يجب **الحذر** منها؛ لأنّها عبارة عن ظلٍ زائلٍ ولكن رغم ذلك إلا أنّ الكُل يجري وراءهُ جهـلاً وطمعًا[17]:

أمَا رأوْا تقلُّبَ الدُّنيـــا بِنَـــا وفتْكَهَـــا بمَـنْ إليهَـا أخْلَـــدَا*
كَمْ نَسَفَتْ أيْدِي الخُطوبِ جَبَلاً وصَيـــرّتْ لُجَةَ بَحْـرٍ ثَمَـــدَا*
وَكَمْ أعَـادتْ ثَـــراءٍ مُعْدَمًـــا وذَا قَبيـلٍ وعَـديـــــدٍ مُفـرّدَا
فَمَـا رأيتُ غيـر ظِـلٍّ زائـلٍ كُـلٌّ يَمُـــدُّ نَحْـــوَه جَهْلاً يَدَا

ويضّجر أسامة من الدنيا لأنّهُ لا سلامة ولا عافية من **أذاها ومصائبها** فهي **تخدع** البشر **بأباطيل الكذب** وتُزيّنُ لهم ما هو في الحقيقة **شَرٌ** لَهُمْ، فيتّبِعُونَها ويسِيرونَ وراء هذا **المزيف** الذي هو في الحقيقة سوءٌ لهم، بل هي تأمرُ **بالمعاصي والذنوب** وبذلك تُؤدي إلى طريق **النّار** التي **ويح** من **يصلى لظاها** فلا يفلحُ فيها إلاّ من زهدها وعصى أوامرها وترك **وعودها الكاذبة** والملغمة وأتى الله بقلبٍ سليمٍ، ثم في الختام **يتبرم** الشاعر **ويتحسر** على الانسياب وراءها والاشتغال بها عن فعل الخير والطّاعات التي هي أساس وُجودنا و الواجب الأساسي الذي كلّفنا الله بتأديته، فيقول متأسِفًا متذمرًا على **التفريط** في الآخرة التي هي دار القرار[18]:

أُفٍّ للدُّنيا فَمَا أوبَا*جنَاهَا لَيْسَ يَخْلُـو مَـنْ رآهَـا مِنْ آذاهَـا
خَدعَتْنَا بـأبَاطِيلِ المُنـى فَارتَكَسْنَـا*في هَـوانَـــا لِهَـواهَـا
واسْـتَمالَتْنَا بوعدٍ كَـــاذبٍ فَتَمَسّكْنَـــا بِـــوَاهٍ*مِـنْ عُـرَاهَـا
وعَدَتْنَا باللُّهَى لاهِيـــةً فَـاشْتَـغَلْنَا بتقَـــاضِينَـا لُهَـــاهَـــا
أوردتّنا النّار لا مَأْوى لنَا مِنْ لَظَاهَـا وجٌّ مَنْ يَصلَى لَظَاهَـــا
أمرتنَا بالمعَاصـــي فَـإذا وفَّـقَ اللّـهُ أمـــرأٌ منّـــا عَصَاهَـــا
آهٍ مِنْ تفريطِنَا شُغْلاً بها عَنْ فِعَالِ الخيّرِ والطّاعَـةِ آهَـــا

3- الـــدعوة إلـــى تركِ الـدنيا والصبر على الابتـلاء:

لذلك ينهى الشاعر غيره عن الاغتباط بسرور الدنيا لأنّ نعيمها وجحيمها زائلٌ لا يدوم، وبما أنّ كل ما فيه الأنام آخره فرشُ التُرابِ ونُزلُ القبور وأحوالُ الدّنيا لا تدوم أخذ أسامة يحثُ على عدم التّعلق بها في قوله[19]:

لا تَغْتَبِطْ بسرورِ دُنْـــ ـيّا ما يدُومُ بهَـا سُـرُورُ
وكذاكَ لا تجْزَعْ لِحَـا دِثَةٍ تَضِيقُ بهَا الصُّدُورُ
فَجميعُ ما فيه الأنَـامُ أَلَيسَ آخِـرَهُ القبـــورُ

4- الثقـــة بالله تعـــالـى والحـثّ على الصبـر:

أصاب أسامة بن منقذ نصيبًا وافرًا من الثّقافة الدينية التي تتجلى أكثر ما تتجلى في الدعوة إلى الصّبر والتفاؤل بأنّ فرج الله ولطفه قريبٌ وأنّهُ سبحانه من يُنجّي الغريق من الهلاكِ فيدعو إلى ترك اليأس والقُنُوطِ والتّوجه إلى الله تعالى والثّقة به[20]:

يَا آلَفَ الهَمّ لا تَقْنَط فأيـّـــأْسُ مَـــا تَكُونُ يأتيكَ لُطْـفُ اللهِ بالفَـــرَجِ
ثِقْ بالذِي يَسْمَعُ النّجوى ويُنْجِي من الـ بَلْوى ويسْتَنْقِذُ الغَرَقَى من اللُّجَـــجِ

ويقول حاثًا على الصّبر أيضًا مُمثلاً بمثالٍ آخر بسيطٍ على جزاء الصّابر وهو اصطبار ابنة العنقودِ (**العنـب**)، حين تُوضع في براميل ضيقة ومُظلمة أفضى بها ذلك لتكون شرابًا لذّةً للشّاربين لذلك على الإنسان التّحلي بالصّبر والتريث فالفرج أكيد سيطرق بابه[21]:

اِصْبِرْ إذا نَابَ خَطْبٌ وانْتظِرْ فرجًا يَأتِي به الله بعد الرّيْثِ واليَـــأسِ
إنّ اصطِبارَ ابْنَةَ العُنْقُودِ إذْ حُبِسَ في ظُلْمَةِ القارِ أدّاها إلى الطّـاسِ

ويُؤكِدُ الشاعرُ على **الصّبر**؛ لأنّ ما يأتي به الدهر من حوادثٍ لا محالة زائِلٌ فلا داعِي **للجزع**[22]:

إذا مَا عَرا خَطْبٌ من الدّهْرِ فاصْطَبِرْ فَإنّ اللّيالِي بالخُطُـوب حَـوامـلُ
فكلُّ الذي يأتي به الدّهْـرُ زائـــلٌ سَريعًا فلا تجزع لمـا هُـو زائِـلُ

والشّاعر أسامة مِمن يُؤمِنون **بالقضاء والقدر**، فيرى أنّ **الرّزق** ممدودٌ لا محدودٌ بل مَقْسُومٌ لا حِيلة في تقسيمِهِ وما على الإنسان إلاّ أنْ **يُفوِض** أمرهُ لله فهو خير الرّازقين[23]:

فَـوّض الأمـــــر راضيـــًا جَـفّ بِـالكَـــائِـنِ القَلَـــمْ
ليّس في الـرّزقِ حِيّلـــــة إنّمـــا الـــرّزقُ بِالقسَـــــمْ

وبما أنّ الشاعر أسامة مُتشبع رُوحيًا بالإيمان والوازع الديني عندهُ لا يزال حيٌّ يقِظ نجدهُ يُقدِمُ باقةً من النُصحِ والإرشاد للفئة التي تعرّضت لأهوال الحزن ولنوائبِ الدّهر فيُوصي بالصّبر على الأحبة، فلو كانت سِهام الموت تُرَدُ لردهَا سيدنا **داوود عليه السلام** أو ابنهُ **سليما نعليه السّلام** بمُلكهِ والحشدِ من جُندِهِ، يقول[24]:

مَثُوبَةُ الفاقِدِ عـــن فقـــدِهِ بـــصَبْـرِهِ أنْفَـــــعُ مِـنْ وجـدِهِ
وُرُودُهُ لابُـدّ مِنْـهُ فَلـــــمُتْنكِـــرُ مَـــا لابُـدُ مِـــن وِرْدِهِ
سِهَامُهُ لَـمْ يستطِـعْ ردّهَـــا داودُ بالمُحَكَّـــمِ مِنْ سَـــــــردِهِ
ولا سليمانُ ابْنُـــهُ ردّهَـــا بِمُلْكِـــهِ والحشَـدِ مِنْ جُنْـــدِهِ

ويُذّكِر أسامة **بالعودة** إلى الله **والثّقةِ** به لأنّهُ لا مفرّ منهُ إلاّ إليه، كما يُوصي أيضًا **بالتّحلي بالصّبر** فللصّابرين الأجر والثّواب والأمن من العذاب والفوز في جنّات خُلْدِ الرّحمن فذلك وعدُ ربي الذي لا

يُخلفُ الميعاد وهذا ما جاء في محكمِ تنزيله بعد قوله تعالى:﴿**وجَزاهُمْ بِمَاصَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيرًا**﴾[25]، فعلينا فقط **العودة** إليه دومًا والتّدبر في آياته[26]:

فَارجِعْ إلى اللهِوثِقْ بالذي ... وافَـــاك في الصّـادِقِ مِنْ وَعْـدِهِ
للصّابرينَ الأجرُ والأمنُ مِنْ ... عَـــذابِـــهِ والفـَوزُ في خُلْـــدِهِ

وإذا واجه أسامة مالا يُطيقُ دفعهُ من **ألمٍ وضُرٍ** نادى الذي ناداهُ **موسى عليه السّلام** لدفع كيدِ فرعون عنه، والذي ناداه **يونس عليه السّلام** واثقًا بأنّه سينجّيهِ من بطن الحوت ومن لُجَجِ البحر وعن **ثقتِهِ بالله** يقول[27]:

إذا مَـا عَـرَا مَـالا أُطِيقُ دِفَـاعَـهُ ... وأرْمَضَـنِي الفكـرُ المسـهّدُ*والهَـمُّ
دعَوتُ الذي ناداهُ موسَى لدفْعِ مَا ... يُحَـاذِرُ مِنْ فِرْعَـونَ فانْفَرقَ اليَـمُّ
ونَاديتُ مَنْ نَاداهُ ذُو النُّونِ واثِقًا ... بِهِفي ظَلامِ البَحرِ فانْكَشَفَ الغَـمّ

5- <u>التـوبـة والابتهـال إلى الله:</u>

ويتقربُ أسامة إلى **الله** بهذا **الدّعاء والابتهال والمناجاة**، ودلّ هذا على تركِه الدنيا بحذافيرها وراءهُ والهرُوب إليه سبحانه وتعالى فهو **الملجأ والملاذ** الوحيد الذي يَفِرُ إليه المرءُ المتعبِدُ الزاهدُ التّقي الذي يُحسنُ الظنّ به[28]:

يا رَبِّ حُسْنُ رَجائي فيكَ حَسُنَ لي ... تَضيّيعَ وقْتِي في لهوٍ وفِي لعِـبِ
وأنْتَ قُـلْتَ لِمَنْ أضْحَى على ثِقَـةٍ ... بِحُسْنِ عَفْوِكَ: إنّي عِندَ ظَنُّك بِي

وكتب على حائط مسجد **"سَبْرِينَ"**، بظاهر مدينة حلب أبياتًا **يحمدُ الله تعالى ويشكره** لأنّهُ وفقهُ وقدّرهُ على تأدية فريضة الحج والتخلص من الذنوب والخطايا التي جناها في حياته فيقول[29]:

لك الحمدُ يا مولاي كَمْ لك مِنّةً ... عليّ وفَضْـلاً لا يَقُـــومُ بهِ شُكْـــرِي
نَزلتُ بهذا المسجدِ العامَ قافِلاً ... من الغَزْوِ موفُورَ النّصِيبِ من الأَجْـرِ
ومِنْهُ رَحَّلْتُ العيسَ في عامي الذي ... مَضَى نحو بيتِ الله ذي الركن والحجـرِ
فأديتُ مفْرُوضِي وأسْقَطْتُ ثِقلَ ما ... تحملْتُ مِنْ وِزْرِ السّـنِينَ على ظهْـرِي

وكتب على حائطِ **مَسْجِدٍ** بظاهِرِ **"مَنْبَجَ"** وهو متوجِهٌ إلى الحجاز **متضرعً الله** آملاً في العتقِ من نيرانه وأن يُعيذهُ ويحفظهُ من خيبة القصد في قوله[30]:

نزلنا به حتّى إذا يومُنَا انْقَضَى ... رَحَلنَا على العِيسِ*النجَـائِبِ والجُـرْدِ
نَؤُمَ بها البيتَ العتيقَ ونبتغي ... مِنَ النار عتقًا جاء في سَابِقِ الوعْـــدِ
فَيَا مَنْ قَصَـدْنَ بيتَـهُ ونبيـهُ ... بكَ العَوْذُ يا مولاي مِنْ خَيْبَةِ القصْدِ

6- بث الحكمة من خلال الـــزهد:

ومن الإشارات الدّالة على ثراء الشاعر وتجربتهِ العريضة في الحياة توظيفهُ للحكمة التي تميّز بها شعرهُ الزهدي، وأكسبتهُ طابعًا خاصًا قد لا يتجلى في شعر غيره،فمثلاً نجده يدعو إلى **الصبر** على المكاره **وعدم الجزع** عند الأهوال،ويُعلل ذلك بحكمة مذيّلة بمثال واقعي وهو صبرُ الجنين في بطن أمّه والذي أفضى به إلى رؤية النُّور،هكذا يقول الشاعر أسامة[31]:

اصْبِر على ما كَرِهْتَ تحْظَ بما تهْـــوى فَمَـــا جـــازعٌ بِمعْذُورِ
إنْ اصْطِبارَ الجنِينِ في ظُلَمِ الـ أحْشَـــــاءِ أفْضَى بِهِ إلى النُّـــورِ

ونجدهُ أيضًا يوجه **النُّصح** من خلال هذه اللّوحة الزهدية التي تحمل في طياتها حكمة مفادها أن الأنام مآلهم **الرّحيل** ونُزُلُهم **القُبور** فما على المرءِ إلاّ أن لا يجزع لحوادثِ الدهر ولِملِماتهِ[32]:

لا تغْتبِطْ بِسُرُورِ دُنـــــيَا مَـا يَـــدُومُ بهَـا سُـــرورُ
وكذاكَ لا تَجْزَع لِحَـا دِثَةٍ تضِيقُ بهَـا الصُّـــــــدورُ
وَجميعُ ما فيهِ الأنَـــا مُ أَلَيْسَ آخِـــرَهُ القُبُـــــــورُ

كما يوجّهُ أسامة نداء لأصحاب القلوبِ النّائمة والغافلة عمّا هو آتٍ، فينصح المرء باتقاء الله ومخافتهِ والسّعي للعمل الصالح؛ لأنّه ليّس لمن مات وسكن اللّحد أملٌ في العودة إلى هذه الدّنيا[33]:

أيُّها الغافِلُكَمْ هذا الهجوعُ* أغْلَن الدّاعِي فهَـل أنت سَمِيعُ
أنْتَ عَمَّا هُو آتٍ غَافِلٌ وكأنْ قَدْ فَاجَأَ الخَطْبُ الفظيعُ
بَادِرِ الخَوف وقَدِّمْ صالِحًا مَا لِمَنْ مَات إلى الدّنيا رُجُوعُ

7- التّذكيـــر بالمـــوت وحســـاب الله تعالى:

برع أسامة في زهدياته في التذكير **بالموت** فكان يلجأ لأسلوب **النّداء** مخاطبًا كافة البشر كي لا ينسوا هذه الحقيقة التي لا هروب منها إلاّ إليها،فيطلبُ من أيّ إنسانٍ عاقلٍ التّروي والتمهل في حياته وخطواته لأنّ من جاوز سنّ السّبعين كم عساه سيعيش؟ أم هل أمّنهُ الله النجاة والسّلام من **النّار**؟! **فحذاري**، لذلك ينصحهُ بعدم الاغترار بلذة العيشِ **فالعمر** مهما طال يبقى قصيرٌ يقولُ[34]:

أيّها المغْـــرُورُ مَهْـــــلاً بلـغَ العُمْـــرُ مـــــداهُ
كَمْ عسى مَنْ جَاوز السّبـ ـعِينَ يَبْقـى كَمْ عَسَـــاهُ
أَنَسِيتَ الله أمْ أمّـــ تـــكَ اللّـهُ لظَـــــاهُ

ويرسم أسامة صورة **الموت الخاطف** الذي يتغذّى على أرواح البشر بألوانٍ تشبيهية ليوضح هذا الحدث الرّهيب الذي بقدر ما يهول النّاس ويزرع الرّعب في قلوبهم بقدر ما هم غير متعظِين، فيشبه

الناس بالطير والدنيا شِباكهم **والموت قِناصُهُم**، فيأتيهم بمختلف الطُّرق(**مذبُوح** أو **مغْتبط**)،لكن رغم هذه الحقيقة إلاّ أنّهم مشغولون بهذه **الدنيا** وزخارفها ولا يُولوُن الموت أيّ اهتمامٍ[35]:

النّاسُ كالطّيرِ والدُّنيا شباكُهُمُ وَهُمْ بها بَينَ ركّاضٍ و مُختبِـــطِ*
والموتُ قَنّاصُهُمُ يأتي على مَهَلٍ لِهُلْكِهِمْ بَيْـنَ مَـذْبُـوحٍ ومُعتبَـطِ*
وقَدْ شُغِلْنَا بدُنْيانا وزُخْرُفِهَـا فالخلقُ ما بين محزونٍ ومُغْتبِـــطِ

ويعُود الشّاعر مرة أخرى للتّذكير مع الجزم المطلق بأنّه ليّس بعد **الموتِ** سوى **الجنة** أو **النار** والموعد الذي سيحدد ذلك هو يوم **القيامة**،ذلك اليوم الذي يجزي فيه الله عن الأعمال وستكون **الحسرة** و**النّدامة** لمن جزاه الله **بالغبنِ** و**السخط**، نفسه اليوم الذي يُنصَفُ فيه **المظلوم** ويُعاقبُ فيه **الظّالم** ويستّوي **الغني** و**الفقير**، وينتصر **الحق** على **الباطل** ذلك اليوم الذي تَشخصُ فيه الأبصارُ للّحيّ القيوم[36]:

فَليّس بعْدَ الموتِ دارٌ سِوَى جنّةِ عَـدْنٍ أو لظًـى تَضَـرمُ*
والموعِدُ الحشرُ ويُجزَى عن الـ أعْمَـــالِ والغَبْـنُ لِمـنْ يَنْـدَمُ
ويُنْصَفُ المظلُومُ من خَصْمِهِ ويسْتَـوِي السُّلْطَـــانُ والمُعْـدَمُ
ويَشْخَصُ الخلقُ إلى حَاكِمٍ يَحْكُـــمُ فيهِـــمْ بالـذِي يَعْـلَـمُ

ويُوجِه أسامة نداءً لأصحاب **القلوب اللّاهية** عن حقيقة **الموت** وعلى الأرجح يخاطب بهذه الأبيات السّاكنين بشمال سوريا لأنهّم من تعرضوا **للزلازل** آنذاك، باثًا في ثناياه حكمة ووعظ وإرشاد فنجدهُ يذكرهم بأنّ **الموت** إذا أتى لا يترك في الحلق ريقٌ فإلى متى هذا **التغافل** و**التّشاغل** عن الله؟ أليّست هذه الزّلازل التي أصابت شيزر بمثابة صفعة تنبيهية من الله كي يستيقظوا من غفلتهم[37]:

أيُّها الغَافِلُونَ عنْ سَكْرةِ المو تِ وإذْ لا يَسُوغُ في الحلقِ ريـقُ
كم إلى كَمْ هذا التّشَاغُلُ والغفـ لَةُ حَارَ السّاري وضَلّ الطّريـقُ
إنّما هزّتِ الزّلازِلُ هذي الـ أرضَ بالغَافِـلِينَ كيّ يسْتَـفِيقُـوا

8- النّهي عـن الظـلم:

ويلومُ أسامة ويُعاتب الإنسان **الظّالم** عَمّا ارتكب من **مآثم** و**خطايا** في حق نفسه وغيره فلا المال يبقى ولا الملك دائم لذلك يحذرهُ وينهاهُ عن التعلق **بالدنيا**؛ لأنهّا كحلم النّائم والظّلِ الزّائلِ لذا يجبُ أخذ **الحِيطة** و**الحذر**، فغدًا يلقى حسابَهُ على كل كبيرة وصغيرة من الملك العادل الذي **تُناجيه** القلوبُ بما تخفي من **الذنوب** وتكاتِمُ والذي يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصُدور[38]:

أوَبَقْتَ*نَفْســـك يا ظلُـومُ بِمَـا احْتـقَبـتَ*من المَظَالِـــمْ
أظننْـــتَ أنّ المَـــال لا يَـفْنَـى وأنّ المُـــلْكَ دائِـــمْ

هَيهَـاتأنتَ ومَـا جَمْعُـ تَ كِـلاَكُمَـا أحْـلامُ نَـائِمْ
تَفْنَـى ويَفْنَـى والـذِي يَبْقَـى الخَطَـايَـا والمَـآثِـمْ
وغَـدًا يُنَـاقِشُكَ الحِسابَ علَـى الحَقِيـرِ مِـنَ الجَـرائِـمْ
مَـلِكٌ تُنَـاجيـهِ القلُـو بُ مِـن الـذّنُـوبِ بمَـا تُكَـاتِمْ
عَدْلُ القضاءبكُـلِّ مَـا تُخْفِـي صُـدُورُ الخلْـقِ عَـالِـمْ

9- بث ألفاظ ومعاني القرآن الكريم في شعر الزهد:

إن من يتتبع شعر الزهد في ديوان أسامة بن منقذ يجدهُ يضجُ بالألفاظ القرآنية ومعانيها، فلفظ الجلالة **الله**، **يا رب** يتردد في شعره باستمرار من ذلك قوله[39]:

يَا آلِفَ الهَمّ لا تَقْنَط فأيـّـأْسُ مَـا تَكُونُ يأتيكَ لُطْـفُ اللهِ بالفَـرَجِ

وينادي الله مُثنِيًا عليه بأنّ ثقته الكبيرة بعفوه ورحمته، جعلت الشاعر يُضيعُ وقته في اللّهو واللّعب دون الخوف من الله؛ لأنّهُ مؤمنٌ بأنّ رحمتهُ وسعت كل شيء، ومغفرتهُ سبقت عقابه، لذلك يقول[40]:

يا رَبِّ حُسْنُ رَجائي فيكَ حَسُنَ لي تَضيّيعَ وقْتـي فِي لهـوٍ وفِي لعِـبِ

ويذكر لفظ الجلالة أيضًا حين يخاطب ناصحًا بالعودة إلى الله في قوله[41]:

فَارجِعْ إلى اللهِوثِقْ بالذي وافَـاك في الصّادِقِ مِنْ وَعْـدِهِ

ويقترن لفظ الجلالة ببعض الألفاظ الأخرى مثل " **لك الحمد يا مولاي** "في قوله[42]:

لك الحمدُ يا مولاي كَمْ لك مِنّةٌ عليّ وفَضْـلاً لا يَقُـومُ بهِ شُكْـرِي

ويعود الشاعر مرة أخرى للتذكير بالعودة إلى الله دائمًا والثقة به باثًا في ثنايا أبياته معنى الآية الكريمة من قوله تعالى:﴿**وجَزاهُمْ بمَا صَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيرًا**﴾[43]، في قوله[44]:

فَارجِعْ إلى اللهِ وثِقْ بالـذي وافَـاك في الصّادِقِ مِنْ وَعْـدِهِ
للصّابرينَ الأجرُ والأمنُ مِنْ عَـذابِـهِ والفَـوزُ في خُلْـدِهِ

أمّا في قوله[45]:

أيُّهَا الغَافِلُونَ عنْ سَكْرةِ المَوتِ وإذْ لا يَسُـوغُ في الحَلْـقِ ريـقُ

عندما نأتي إلى تحليل هذا البيت الشّعري نجد الشّاعر قد استهلهُ بالنّداء والخطاب، خطابٌ لأصحاب القلوب اللاّهية والغافلة عن وجود حقيقة اسمها **"الموت"**، هذا الشّبح الذي يأتي على حين غرةٍ دون إنذارٍ ولا موعد مسبقٍ ليفتك بمن أذن الله تعالى لروحهِ بالصّعود إليه، مُضمِنًا بيتهُ معنى الآية الكريمة من سورة" **ق** ":﴿**(18) وجَاءتْ سكرةُ المَوتِ بالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْت مِنْهُ تحِيْدُ(19)** ﴾[46]، مُؤكدًا ومُعزِزًا هول هذه الفاجعة العظيمة حين تفتكُ بالبشر.

وإذا واجه الشّاعر أسامة مالاً يُطيقُ دفعهُ من ألمٍ وضُرٍ نادى الذي ناداهُ " موسى عليه السّلام " لدفعِ كيدِ فرعون عنه، والذي ناداه " يونس عليه السّلام " واثقًا بأنّه سينُجّيهِ من ظلمات البحر ومن بطنِ الحوت، وعن ثقتِهِ باللهيقول أسامة[47]:

إذا مَـا عَـرَا مَـالا أُطِيـقُ دِفَـاعَـهُ وأرْمَضَـنِي الفكــرُ المسـهِّدُوالهَــمُّ
دَعَوتُ الذِي نَادَاهُ مُوسَى لدفْعِ مَا يُحَـاذِرُ مِنْ فِرْعَـونَ فانْفَــرقَ اليَــمُّ
ونَاديتُ مَنْ نَاداهُ ذُو النُّونِ واثِقًا بهِ فِي ظَلامِ البَحرِ فَانْكَشَفَ الغَــمّ

الشّاعر في هذه الأبيات يُعيد كتابة النّص القرآني ويوظفهُ توظيفًا فنيًا و زهديًا، فمثلاً البيت الثاني استوحاه الشّاعر باللّفظ والمعنى من قوله تعالى في" **سورة الشعراء ":﴿(62) فأوحيْنَا إلى مُوسَى أنْ اضْرِبْ بِعصَاكَ البحرَ فانْفَلقَ فكَانَ كُلُّ فِرقٍ كَالطَّودِ العظِيمِ(63)﴾**[48] ، فلمّا اشّتد الأمر بسيدنا موسى أوحى الله إليه بأن يضرب بعصاه البحر كي يجعل لنفسه مخرجًا فكانت النّجاةُ والبشرى والفرج، وفي ذلك حكمة أو رسالة أراد الشاعر أن يوصلها للقارئ، مفادها أنّ لطف الله وفرجه قريب وأيسر مما نتوقع، وقد يتجلّى لطفه في العديد من الصور لذلك لا يقنط الإنسان من رحمة الله، ونفس الشّيء بالنسبة للبيت الثاني حين بثّ الشّاعر في شعره قوله تعالى:﴿ **وذَا النُّونِ إذْ ذَهبَ مُغاضِبًا فظَنَّ أنْ لنْ نَّقْدِرَ عليْهِ فنَادى فِي الظُّلُمَاتِ أن لاَ إله إلاّ أنْتَ سُبحَانَكَ إنِّي كُنْتُ من الظّالمينَ(87) فاسْتجبْنَا لهُ ونَجّيْنَاهُ مِنِ الغَمّ وكَذلكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ(88)﴾**[49] ، نفهم أنه لولا تفطن سيدنا **يونس**"عليه السّلام" للذكر والتسبيح لمكثَ في بطنِ الحوت إلى يومِ يبعثُون، ولكن الله نجّاهُ من الغمّ والضيق بفضل الذكر والتسبيح، أي أنّ العبادات والطاعات والذكر والتسبيح سبب الفرج والنجاح.

أراد الشّاعر أسامة أن يُوصل رسالة سامية من خلال هذه الأبيات الرّائعة والتي تحلّت بطابع الحكمة والبيان الرّباني، فحواهَا أنّ الإنسان مهما ضاقت به السّبل، ومهما كثرت عليه المصائب والمحن سيجعل الله له مخرجًا عاجلاً أم آجلاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويسخر له من عباده الصّالحين منْ يساعدهُ، فما عليه إلا الثّقة به والتوكل عليه فهو حسبهُ، ولعلّ خير دليل على ذلك قصص الأنبياء والمعجزات الإلهية التي حدثت معهم ففي ذلك عبرة لمن يعتبر.

خـــــاتمـــــة:

لمّا كان شعر **"الزّهد "**يتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى والتمسك به، وتركِ الدنيا ومتاعها، وحول النّفس وما يتصلُ بها من قناعة وتقوى، وحول الآخرة وما يرتبط بها من الموت والعقاب والثّواب، كان من الطبيعي أن يدُور المعجم الشّعر يالزّهدي للشّاعر أسامة بن منقذ حول تلك المضامين والمعاني المتصلة بهـا، كما كان لأسلوب الحكمة والوعظ والخطابة التأثير الكبير على معجمه

الشّعري، خاصةً الشعر الذي يتجهُ إلى النّفسِ أو إلى الغيرِ واعِظًا وناهيًا وآمرًا ومُرشِدًا ومُصلحًا، أو قاصدًا الله مُناجيًا ومبتهلاً وهذا مرجعهُ لِكونِ الشاعر عاش في بيئة دينية بحتة، كما كان حافِظًا لكتاب الله دارسًا لأصول الفقه والدين، لذلك فلا غرّو إن وجدنا زهدياته قد توشحت بالكثير من أساليب النّداء وصيغ الأمر والنهي والتحذير وما إلى ذلك مما يُقوّي التأثير وينهض بمهمة الترغيب والترهيب وصولاً إلى ما يهدي إليه من التقويم والتهذيب والإصلاح.

الهوامش والمراجع والمصادر:

1 ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ج2، دار بيـــــروت للنشـــر والطباعـة، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1995م، ص 303. **ينظر أيضا:**خير الدين الزركلي: الأعـلام، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1980م، ص291.

2 ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكّار، ج3، دار الفكر للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط1،(د، ت)، ص1361.

3 عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريـدة العصـر(قسـم شعـراء الشّـام)، تح: شكـري فيصل،ج1، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا،(د، ط)، 1375 هـ،1955م، ص498.

4 عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء الشّام)، ج1، ص498.

5 محمد عـدنان قيّطـاز: أسامة بن منقذ والجديد من آثـاره وأشعـاره، منشـــورات وزارة الثقافـــة، دمشق، سوريا، (د، ط)، 1998م، ص12.

6 أسامة بن منقذ: ديوان الفارس أسامة بن منقذ، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ص05.

7 ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس،ج1، بيروت، لبنان،(د، ط)، 1978م، ص199.

8 سعاد الحكيم: المعجم الصّوفي(الحكمة في حدود الكلمة)، دار دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ص552.

9 محمد الجوهري: الصحاح، تح:أحمد عبد الغفور عطّار، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4،1990م، ص481.

10 محمد شيخاني: التربية الرّوحية بين السّلفيين والرّوحيين، دار قتيبة، دمشق، سوريا، ط2، 1995م، ص155.

11 عبد الله محمد البغدادي: الزهـد، دار ابن الكبير للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ب)، ط1، 1999م، ص05.

12 أحمد البيهقي: الزهد الكبير، تح: عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1987م، ص24.

13 أسامة بن منقذ: الديوان، ص 331.

14 المصدر نفسه، ص310.

15 المصدر نفسه، ص331.

16 المصدر نفسه، ص328.

17 المصدر نفسه، ص 329.
*أخلدا: مـال. *الثمد: الماء القليل.
18 المصدر نفسه، ص 342،243.
*أوبا: وبثْ الأرض كثر فيها المرض. *ارتكس: انتكس. *بواءٍ: تافه.
19 المصدر نفسه، ص331.
20 المصدر نفسه، ص296.
21 المصدر نفسه، ص302.
22 المصدر نفسه، ص306.
23 المصدر نفسه، ص304.
24 المصدر نفسه، ص330،329.
25 سورة الإنسان، الآية:11،12.
26 أسامة بن منقذ: الديوان، ص330.
27 المصدر نفسه، ص339.
*المسهد: المؤرق.
28 المصدر نفسه، ص226.
29 المصدر نفسه، ص 332،333.
30 المصدر نفسه، ص328.
*العيس: الإبل البيض يُخالِطُ بياضُها شقرةٍ. *فرس أجرد: قصير الشعر رقِيقُهُ.
31 المصدر نفسه، ص301.
32 المصدر نفسه، ص331.
33 المصدر نفسه، ص336.
*الهجوع: السبات، الخمول.
34 المصدر نفسه، ص342.
35 المصدر نفسه، ص333،334.
*الخبط: السّير على غير الهدى. * اعتبط الذبيحة: نحرها من غير علة، وهي سمينة فتية.
36 المصدر نفسه، ص339.
*تضـرم: اشتد.
37 المصدر نفسه، ص337.

38 المصدر نفسه، ص340،341.
*أوبقت: أهلكت. *احتقبت: ادّخَرتَ.
39 المصدر نفسه، ص296.
40 المصدر نفسه، ص226.
41المصدر نفسه، ص330.
42 المصدر نفسه، ص 332،333.
43 سورة الإنسان، الآية:11،12.
44 أسامة بن منقذ: الديوان، ص330.
45 المصدر نفسه، ص337.
46 سورة ق، الآية:19 ،18.
47 المصدر نفسه، ص339.
48 سورة الشّعراء، الآية:62،63.
49 سورة الأنبياء، الآية:87،88.